من تراب الطريق

(٣١١) فيا غوثاه يا غوثاه يا غوثاه![*]

فى عام المجاعة أو الرمادة (١٧ هـ) ، بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب برسائل استغاثة عاجلة إلى كافة أمراء الأمصار ، يقول لهم فى كل منها بعد السلام : «أفترانى هالكا ومن قِبَلى ، وتعيش أنت ومن قِبَلك ؟! فياغوثاه يا غوثاه يا غوثاه» !!

وقتها لم يكن يصادف الناس إلاّ الجوع، ولم يضربهم العطش وهو أشد.. ومع ذلك لم يستطع أمير المؤمنين ، إلاّ أن يطلق استغاثته الشهيرة : يا غوثاه يا غوثاه يا غوثاه ! ليحث ويستنفر بها أمراء الأمصار لإنقاذ الرعية من الجوع .. هذا الجوع الذى قال عنه يوما : «لو لم أجد للناس ما يسعهم إلاّ أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم أى عددهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتى الله بالحيا فعلت . فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم»!

استدعى هذه المعانى من أزمن القديم ، أننا قد بتنا نأكل ونشرب ما نخرجه ، إما مباشرة فى مياه الشرب التى اختلطت بالمجارى ومياه الصرف ، وإما من خلال النباتات التى رويت بهذه المياه الفاسدة ، حتى انفجرت الآثار المدمرة على صحة بل وحيوات الناس ، فلا يكاد يمضى يوم إلاّ وتحمل الصحف أنباء المصابين بالتيفود الذين تستقبلهم المستشفيات

(*) المال ١٣/ ٨/ ٢٠٠٩

تباعًا .. لم تقتصر المأساة على قرية البرادعة أو محافظة القليوبية ، فطفح البثور قد طفق يتفجر بالمحافظات ومعه تزايد حالات الفشل الكلوى التى تتصاعد من سنوات حتى وصلت إلى معدلات كارثية !

لا شأن لنا بالتعلات ولا بالاتهامات المتبادلة بين شبكتى المياه والصرف الصحى ، ولا بالأسباب والذرائع والتعلات ، أو متاهات المشاكل أو المقاولين أو المواسير ، فالذى يعرفه القاصى والدانى أن بلد النيل باتت تعانى من العطش من زمن طويل ، حتى خرج الناس ليقطعوا الطريق الساحلى الدولى فى شمال كفر الشيخ من عامين ، وضرب العطش أحياءً فى القاهرة وفى شتى العواصم ، ناهيك بالمدن والمراكز والقرى والنجوع .. ويعرف القاصى والدانى أن اختلاط مياه الصرف والمجارى بمياه الرى وبمياه الشرب قد تفشى من زمن فى ربوع الوطن .. وهذا الاختلاط لم يحدث فى لحظة أو فى يوم وليلة ، وإنما هو تراكمات سنين سكتت فيها الإدارة بأجهزتها عن الالتفات والتفطن واتخاذ اللازم ، ثم غلبها تراكم المشكلة والأسباب ، حتى استسلمت أو لجأت هنا أو هناك إلى أسلوب المسكنات ، وخالط هذه المسكنات انحراف الذمم واغتراف الحرام وشيوع الإهمال وتراخى المراقبة ، فتعثرت الحلول ، وغابت مواصفات المواسير فى بعض البقاع كما قيل ، ولم يلتفت أحد إلى شىء من هذه المخاطر المتراكمة وأثرها المدمر على صحة وحيوات الناس ، وبقى أمراء الأمصار وقادة الأجهزة والإدارات فى سبات عميق حتى انكشف الغطاء عن إصابات التيفود التى طفقت تلحق وتنافس إصابات الفشل الكلوى !

ترى من المسئول عن هذه التراكمات التى طفحت ، ومن المسئول عن آثارها التى آلت بنا إلى أن نشرب ونقتات بما نخرجه ، وهو مصير أسوأ من الجوع الذى استغاث الفاروق عمر لنجدة الرعية منه .. فالجوع قصاراه صبر على نداء البطون ، واقتصاد فى الطعام ، وتصابر على قلته ، واستعانة ولو بالتسول على مواجهته !! أما أن يشرب الناس ويقتاتوا بما تخرجه بطونهم ، فكارثة تعافها وتترفع عنها الحيوانات !!

تبدى كل يوم التعلات والمعاذير ، والأسباب والعلاج ، ولكن ذلك لم ولا يغير شيئا مما يشربه ويأكله الناس ، ولا يحمى المنكوبين فى طعامهم وشرابهم مما يصيب أكبادهم وأحشاءهم وكُلاهم .. وبدلًا من المساءلة والحساب ، ينعم الأمراء بمواقعهم ، لا يتحفون الناس إلاّ بالكلام ، وتمضى أنغام الترف يرتع فيها الأثرياء والمنعمون الذين لا يشربون إلاّ المياه المعدنية ، ولا يقتاتون إلاّ بأطايب الطعام النظيف أو المستورد !

ما أحرانا الآن ما دام الأمراء لا يتنادون ، أن نتنادى نحن : ياغوثاه يا غوثاه يا غوثاه ! ماذا بقى لنا بعد أن صرنا كالخنازير نقتات على زبالة وإخراجات البطون ، فلا ندرى أقدر علينا أن نقاوم أنفلونزا الخنازير أم نعيش عيشتهم ونأكل ما يأكلون ؟! . إنهم على الأقل أعنى الخنازير لا يدركون ماذا يقتاتون ، وقد وجدت إدارتنا الهمامة الحل بإعدام الخنازير لاتقاء الأنفلونزا ، فترى ماذا هى فاعلة بنا بعد أن صرنا نشرب ونقتات مثلهم !! بما تخرجه البطون ؟!